وقوله :

هذي برزت لنا فهجت رسيسا ثم انصرفت وما شفيت نسيسا

وقوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم إلى سعيد بن عبد الله بمراناً

إلى ما هنالك من هذا الطراز .

لو كان تعاظم المتنبي سمح له بأن يضحي ببعض ما نظم لزاد عدد ملوكه وقل حجابه ... وحبذا لو اختير الملوك في شعر المتنبي وجعوا في قامة واحدة فيتجلى سلطانه على غير الوجه الذي يعرفه الناس. هنا الكتاب الذي يجمع ملوك المتنبي وجواهره دون الحجاب والأصداف تطالب به المكتبة العربية وهو روح ديوانه ! وهو ديوانه الحقيق الذي لا أرى له في غيره روقين ينطح بهما النجوم ودهراً يروى له القصائد وينشد ..

راجي المراغي

صور من الحياة :

زلّـــة ... !

للأستاذ كامل محمود حبيب

يا عجباً ! وأنّى كان الحياء تأبى إلاّ أن تسخر منك — يا صاحبي — فتفسح لي مكاناً في زاوية من دارك لأكتب قصة حياتك بين جدران حجرتك ، أستلهم الوحي مما كان يدور هناك من عبث وسخف ، وألتقط المعاني مما كان يشرق به المكان من حافة وطيش .

خبّرني ، يا صاحبي ، أي لذة استشعرتها في الكأس الأولى عند أول رشفة تجرعتها من قدح الخمر ؟ لا تدع قلبي يرثي لحماقتك وأنت ما تزال فتى في عنفوان العمر ، ولا تدر النفس تساقط حسرات لجهلك وأنت موظف كبير تدر عليك الوظيفة ما يكفيك أنت وزوجك وأولادك . آه ، يا صاحبي ، لو تاب عقلك فرجعت من غيك ! إذن لأصبحت — كما عرفتك منذ سنوات — رجلا طيب النفس هادئ الطبع رضيّ الخلق.

* * *

لقد عرفتك ، يا صاحبي ، بعد أن تخرجت في كلية التجارة ، شاباً كثير الأدب والنشاط شديد القوة مفتول العضل وسيم الطلعة جميل السمت ، واسع فيك توقد الذكاء ورجحان العقل وقوة الحجة ، ثم ضربتْ بيني وبينك توازع الحياة ومشاغل الوظيفة فما تلاقينا منذ سنوات .

أما أنت فقد تلقفتك الحياة لتاقي بك بين براثن الشهوة وتقذف بك بين مخالب الشر . وقال لك شيطانك : لا عليك إن أنت ألقيت بدلوك في الدلاء فتكون قد تذوقت رحيق الحياة ورشفت رضاب اللذة واستمتعت بجمال السعادة .

إن الحياء الذي دفعك عن النساء هو الذي دفعك لتحب الكأس الأولى حتى الثمالة .

وسرت حيا الخمر — أول الأمر — في مفاصلك تأخذ بالنشوة تتدفق في عروقك فتشيع المرح في أعصابك والطرب في قلبك . وخيل إليك أن في الخمر سحراً تنجاب له هموم النفس وتتزاح أعباء الروح ، فطابت لها خواطرك وهدأت ثائرتك : لا ضير عليّ إن أنا اختلست من عمري فترات أقضيها بين رفاق الحانة أسعد بحديثهم وهو حلي وأشاطرهم الكأس وهي لذيذة ، وأنا أجد فيها شفاء من رهق الحياة ودواء من هموم العيش وجلاء من صدأ العقل . ولكن الخمر جذبتك إليها في شدة وعنف فما استطعت أن تنصرف عنها . يا لحماقتك يا من تضم قدميك عند حافة الهاوية ثم تطمع أن ترتد عنها قبل أن تبلغ القرار !

لقد كان راتبك يربو على حاجات عيشك ، ومتعة نفسك ، ولذة قلبك . ولكن الخمر قد سيطرت عليك فسلبتك مالك ، واستنفدت وفرك ، فقنعت بالعيش الخشن ، واللباس الوضيع ، والحياة المضطربة ، ثم شعرت بضيق ذات اليد ، فتعرفت على (فلان بك) ، وهو فتى في مثل سنك من أبناء الذوات ، يغمره الثراء ويفهق جيبه المال ، ولصقت به في غدوه ورواحه ، تشاركه عبثه ولهوه ، وتشاطره هزله وجده ، وراقه حديثك وطرب له ، فصاحبك وسكن إليك . ووجدت أنت في ماله مدينة تقيك ثمن الخمر وهو باهظ ، وتزيح عنك تكاليف اللهو وهي ثقيلة ، ثم انحطت هناك ، وسفلت رجولتك ، ففتحت له بابك ، وأفسحت له مكاناً بين زوجك وأولادك ليقضي هناك لياليه في عبث ومجون

وقد لعبت الخمر بعقله وهتكت عنه أستار الخجل وسلبته نعمة الحياء. ثم مرت أيام فإذا رفيقك — سعادة البك — يحس بثقلك ويضيق بشهواتك ويضن عليك بماله، ثم راح يدفعك عنه — بادئ ذي بدئ — في رفق ولين، ويفر من صحبتك في لباقة وذوق. ثم ضاق بك مرة أخرى فانطوى عنك وأنت تطلبه وينفر منك وأنت تتلمسه، ثم طار عنك فما عدت تراه ولا تسعد بماله.

ونظرت حواليك فإذا سعادة البك قد ضربك بالقلى والهجران وصفعك بالاحتقار والازدراء، وإذا راتبك لا يكفيك إلا أياماً. إزاء هذا الرفيق الأهوج وإن الذكاء ليتألق في ناظريك، وإن الحياة لتضطرب في خيالك، وأنت موظف كبير في مصلحة الضرائب. وركبك شيطان الخمر وشيطان الحاجة معاً حين عزّ عليك ألا تجد ما تنفقه في ملذاتك التافهة، وألا تجد ما تسد به طلبات زوجك وأولادك، وخشيت أن تنهار حياتك في المنزل وأن تبدو على أولادك سمات القلة والمسكنة، فانطلقت تريد أن تتلمس فرجة تنفذ منها إلى رغبات نفسك ورغبات الأسرة.

وخلوت إلى نفسك تحدثها حديث شهواتك والشيطان من ورائك يوسوس لك ويزين الشر في عينيك، ورأيت في مصلحة الضرائب قوات يستطيع المرء أن ينفذ منها إلى المال في غير مشقة وأن يبلغ الثراء من خلالها في غير جهد، ولكنك نسيت أنها قوات لا يسترها إلا الرياء والمداهنة، ولا يداريها إلا المكر والخداع، ونسيت أيضاً أنك إن واريت الجيفة التراب لم تستطع أن تكتم رائحتها النتنة أن تفوح فتملأ الخياشيم فتتقزز لها النفس.

ثم غدوت تجمع حواليك أصحاب رءوس الأموال من التجار والصناع تناقشهم في يسر وتخضع لهم بالقول وتتبسط معهم في الحديث حتى أنسوا إليك. لقد كان الواحد منهم — من قبل — يخشى وطأة قلمك ويرتعد لحدة ذكائك ويشفق من سلاطة لسانك ويفزع من جفوة حديثك. أما الآن فقد انفتح الباب لابن الحاجب و...

وهمست الألسن بكلمات، وطارت شائعة بين موظفي مأمورية الضرائب أنك — لأمر ما — نزلت عن جفوتك ونأيت عن غلظتك وجمت كبار التجار والصناع في مكتبك تحبوهم بعطفك وتسبغ عليهم من رقتك وظرفك.

وجاءك — ذات مرة — تاجر أجنبي من كبار التجار يساومك لترفع عن ظهره الرفيق سوط المصلحة وهو جاف غليظ ويوحي إليك أنه يريد أن يدفع ثمن رأيك وجاهك، فوعدته ... وجلس التاجر أمامك في صمت وأمل ليرى ما عساه أن يكون. وأمرت أنت فجاءك موظف شاب سمهري القوام مرفوع الرأس علامة الكبرياء، ثابت الخطوة علامة الثقة بالنفس، تتأجج في عينيه نار الذكاء وتبدو على قسمات وجهه سمات الفطنة وتتوثب حركاته نشاطاً وحياة وهو — إلى ذلك — جميل الطلعة طلق المحيا أنيق اللباس من أثر النعمة والثراء ...

جاء الموظف الشاب يتأبط أوراقاً وفي رأيه أنك تسهلت بعد صعوبة، ولنت بعد صلابة، وأسلست بعد شماس، ونظر فرأى التاجر إلى جانبك فبدا له ما تكن نفسك، وآثاه أن تحدثه في شأن من شئون العمل وهذا التاجر الأجنبي يسمع ويرى، ولكنه صبر على مضض وسكن على غيظ، وبدأت أنت تحدث الموظف الشاب بقولك: «ماذا فعلت — يا بني — بهذا الملف» فقال في هدوء: «يا سيدي، لقد انتهيت من فحصه وربطت عليه الضرائب، والأمر الآن في سبيل التنفيذ». فقلت أنت: «ولكني أريد أن تجيل بصرك ورأيك فيه مرة أخرى، لأن التاجر يشكو عنت المصلحة وعنتها فأجابك «لا سبيل إلى ذلك، فالعمل من ورائي يستحثني وقد خلصت من هذا الأمر منذ زمان» فقلت له في غلظة «ولكني آمرك» فنظر إليك الموظف الشاب في احتقار ونفض في مهانة ثم قال لك «تأمرني، نعم، لأنك رئيسي، ولكني لن أطيع أمرك» فهرته في شدة قائلاً «ماذا؟ ماذا تقول؟ كيف؟ إني آمرك ولا بد أن تطيع» فألقى الموظف الشاب أوراقه على مكتبك وخرج من لدنك وهو يقول «هذا هو الملف خذه، افعل به ما تشاء. أما أنا فسأعرض الأمر على سعادة المدير العام!» وسقط في يدك، يا صاحبي، حين ألقى الموظف الشاب عليك درساً عنيفاً قاسياً لن تنساه أبداً، لأنه امتهنك أمام التاجر الأجنبي ولأنه سخر من أمرك وعبث برغبتك، فما استطعت أن تفعل شيئاً.

* * *

الآن برح الخفاء واستحالت الهمسات إلى كلام يسمع،